

خلق السموات والأرض

المهندس عدنان الرفاعي

.. عندما نشرت في النظرية الثالثة (الحق المطلق) أواخر القرن الماضي ، نظرية تشكّل الكون كما أدركتها من كتاب الله تعالى ، وبعد ذلك عندما تحدّثت عن ذلك باختصارٍ شديد جداً في برنامج تلفزيوني وفي سياقٍ لا علاقة له بهذه المسألة ، لامي بعض الإخوة حول طرح ذلك ، معتردين أنّ هذا الطرح موافق لقول القدماء من علماء الفلك بأنّ الأرض - الآن - هي مركز الكون .. على الرغم من أنّي بيّنت في عرضي لهذه المسألة أنّي أشرح نظرية تشكّل الكون ، أي حال السموات والأرض زمن تشكّل الكون ، أي في بداية الخلق ، وليس الآن ، على الرغم من تبياني لذلك ، هناك - للأسف - من لا يريد أن يقرأ هذا البيان ، معتقداً أنّ شرحي لنظرية تشكّل الكون يحاكي موقع الأرض الآن في جسم الكون ..

.. وعلى الرغم من أنّي بيّنت أنّ مفهوم الزمن هو إدراكنا الحسيّ وتفاعل أنفسنا مع تغيير المادة وحركتها ، وأنّ الزمن ليس نموذجاً ثابتاً تنصاع له كلّ مكونات الكون المادّي بذات الإنسياب الذي ننصاع له ، وعلى الرغم من أنّي بيّنت أنّ الزمن مفهوم نسبيّ يتعلّق بالمادة وحركتها نسبة لحركة المادة المحيطة بها ، وأنّ قياس قدم المادة مقارنة مع مادة أخرى إنّما نقوم به عبر أدوات ماديّة هي ذاتها خاضعة لقانون التغيير الذي نقيس

وفقه قدم هذه المادّة ، وبالتالي فنتائجنا نسبيّة وليست مطلقة ، وعلى الرّغم من أنّي بيّنت أنّ مفهوم اليوم في كتاب الله تعالى نسبي ويتعلّق بدوران المسألة حول نفسها دورة كاملة ... على الرّغم من كلّ ذلك .. عاير بعض الإخوة شرحي لنظريّة تشكّل الكون في كتاب الله تعالى على ما تعرضه الفرضيّات الغربيّة من معايير زمنيّة تقيس عمر مادّة الكون ، معتبرينها معايير مطلقة ، وكأنّهم وقفوا على مراحل خلق السماوات والأرض وقوفاً يشهدون به على هذه المراحل ..

.. وهناك من المتأخرين بالدين ، الذين لم يعوا حقيقة دلالات كتاب الله تعالى ، ولم يعوا حتّى الفرضيّات العلميّة ، راحوا يلوون أعناق آيات كتاب الله تعالى محاولين إنزالها إلى رؤاهم ومفاهيمهم الضيقة حول الفرضيّات الغربيّة .. والطامّة الكبرى أنّهم يقدّمون فهمهم المشوّه لآيات كتاب الله تعالى على أنّه هو فقط هو مراد الله تعالى في كتابه الكريم ..

.. وفي سياق شرح نظريّة تشكّل الكون لا بدّ من تبيان أمرٍ يتعلّق بالمنهج السليم في فهم آيات كتاب الله تعالى ، وهو الوقوف عند الصياغة اللغويّة لعبارات النصوص القرآنيّة ، وعدم فرض أيّ تصوّر مسبق على دلالات هذه النصوص ، ومقاطعة النصوص مع بعضها ، والالتزام بترتيب العبارات القرآنيّة المتتالية ، كانعكاس لترتيب الأحداث المصوّرة لها ، إلّا إن كان في السياق النصّي ما يحمل خصوصيّة في ذلك ..

.. إنّ الحقيقة المتطابقة ما بين كتاب الله تعالى المنشور (الكون) وكتاب الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) ، تتمّ تغطيتها عن أعين الباحثين عنها في الكتابين (المنشور والمقروء) ، عبر عدم اتباع منهجيّة البحث العلمي السليم المجرّد عن التصورات المسبقة الصنع ، وعبر اعتماد آليات بحث ومعايرة هي ذاتها خاضعة لقوانين التغيّر التي تخضع لها مادّة الكون ، واعتبار هذه الآليات مقدّمات يقينيّة تُوصل لنتائج يقينيّة ..

.. لذلك تعدّد الرؤى ، وتتناقض فيما بينها ، ويتوهم بعضهم أنه هناك تعارض بين كتاب الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) و كتابه المنشور (الكون) .. ويتاجر بعضهم بهذا الوهم للإساءة لكتاب الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) ، ويتيه الكثيرون غرقاً في هذا المستنقع ..

.. سنبحث مسألة خلق السماوات والأرض في القرآن الكريم وفق منهج الكلية في البحث القرآني ﴿ءَامِنًا بِهِ كُلٌّ﴾ ، بهدف معرفة ما يحمله كتاب الله تعالى من حقائق لهذه المسألة ..

إنَّ أوَّل ما يجب إدراكه هو أنَّ الوقوف على حقيقة خلق السماوات والأرض بمراحلها وجزئياتها ، وبيقين ندركه كما ندرك بعض الحقائق المادّية المحسوسة بين أيدينا ، هو مسألة مستحيلة ، فلا يقين في هذه المسألة إلاّ ما يخرنا الله تعالى عنه ..

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُوا ﴾

﴿ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١]

.. فمادّة الكون ابتداء بالذرة وانتهاء بالمجرات تتحرّك مكوّناتها ، وتدور وفق نواميس لا ندرك منها إلاّ ما يقع تحت حواسنا ، في عصرنا ، ومن منظار موقعنا في هذا الكون .. ومثلنا في ذلك مثل الذي ينظر إلى دائرة صغيرة جداً جداً في لوحة كبيرة جداً جداً ، متخيلاً صورة هذه اللوحة الكبيرة لا تتجاوز ما رآه في هذه الدائرة الصغيرة .. ومثلنا في ذلك لا يختلف كثيراً عن الناظر إلى نقطة من الخط المنحني ، والذي تتساوى عنده - وفق هذا المنظار - الدائرة مع المربع مع الخط المستقيم ، فالنقطة هي النقطة ، وما يميّز الدائرة عن الخطّ المستقيم هو الجهات التي تُربط فيها النقاط السابقة لهذه النقطة فيما بينها ، والجهات التي تُربط فيها النقاط اللاحقة لهذه النقطة ، إضافة إلى كون هذه النقطة حلقة واصله ما بين النقاط السابقة لها والنقاط اللاحقة لها ، وفق جهة محدّدة ..

.. إنَّ أيَّ نظريَّة فلكيَّة في هذه المسألة لا تخلو من تصوّرات مسبقة ، ولا تخلو من فرض رؤى محدّدة على مقدّمات جزئيَّة نحصل عليها ببحثنا الحسي عبر أدوات ماديَّة هي ذاتها خاضعة لقانون التغيّر ... وهذا القانون يشكّل لوحة كبيرة جداً تمتدّ من لحظة خلق الكون إلى نهايته ، ولا نرى من هذه اللوحة سوى دائرة صغيرة جداً ضمن حدود عصرنا وموقعنا في هذا الكون .. وبالتالي فهذه المقدّمات الجزئيَّة كالنقاط المكوّنة للخطوط ، لا يمكن من خلالها أن نرسم صورة الخط الذي تكوّنه دون الوقوف على الجهات التي تربط النقاط السابقة لهذه المقدّمات الجزئيَّة والنقاط اللاحقة لها .. من هنا نرى الاختلاف بين فرضيات تشكّل الكون على الرّغم من أنّها تنطلق من ذات المقدّمات الماديَّة ..

وما يجب إدراكه أيضاً هو أنّ الزمن مخلوقٌ من مخلوقات الله تعالى ، يحكم المادّة بشكلٍ نسبيٍّ وفق انسيابٍ يتعلّق بحركتها ، وأنّ الله تعالى فوق الزمن ومعايره ، وأنّ إيجاد الله تعالى للأشياء إنّما يكون بكلمة ﴿كُنْ﴾ ولا يحتاج لأيّ زمن ..

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

فالمادّة الأولى التي خُلِقَت منها السموات والأرض ، وُجِدَت بكلمة ﴿كُنْ﴾ من الله تعالى ، وما زالت هذه المادّة (المكوّنة لجسم هذا الكون) تستمدّ حيثيات وجودها من الخالق سبحانه وتعالى ، فهي موجودة داخل إطار من المكان والزمان - كما رأينا في النظريَّة الثانية (القدر) - نتيجة حركة الطاقة التي يُودعها الله تعالى ويحرّكها ضمن إطار المكان الذي تملؤه هذه المادّة ، فلولا قيوميّة الله تعالى وأمره في كلّ لحظة بقاء هذه المادّة في عالم المكان والزمان لزالَت هذه المادّة ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] ..

فالله تعالى يُمسك السموات والأرض في كلّ لحظة من الزوال ، عن طريق إعطائها حيثيات وجودها ، عبر حركة الطاقة داخل إطار المكان الذي يحتجزه جسم المادّة ..

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۗ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ

أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١]

.. وما يجب إدراكه - أيضاً - هو أن ورود العبارات القرآنية التي تصوّر خلق الله تعالى للسماوات والأرض عبر الأيام ، لا يُحقّق لنا سحب تصوّراتنا - المادّية المحكومة لقوانين المكان والزمان أثناء تفاعلنا مع الأشياء - على الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ..

إنّ اليوم هو مقياسٌ زمني مكاني يحكم الأجسام المادّية في مكانٍ ما ، فاليوم عندنا على الأرض [الذي هو (٢٤) ساعة] يقابل دوران الأرض حول نفسها دورة كاملة ، واليوم في كوكب آخر يعني الزمن المقابل لدوران ذلك الكوكب حول نفسه دورة كاملة .. وهكذا .. فكلمة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ والتي تتعلّق بخلق السماوات والأرض ، تعني خضوع المادّة الأولى [التي أوجدها الله تعالى قبل مرحلة الخلق هذه ، تلك المادّة التي خلّقت منها السماوات والأرض] ، تعني خضوعها لدورات مكانية حول نفسها [ست دورات] ، تمايزت من خلالها إلى الهيئة التي نراها الآن ..

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣]

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ

﴿ [هود : ٧] ﴾

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ ۗ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهٖ حَبِيرًا ﴾ [الرحمن : ٥٩]

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ ۗ ﴾ [السجدة : ٤]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ

﴿ [ق : ٣٨]

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ۗ ﴾ [

الحديد : ٤]

ولا يمكن سحب مفهومنا عن اليوم على مسألة ارتباط كلمة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ في القرآن الكريم بخلق السماوات والأرض ، فاليوم بمفهومنا هو تعاقب الليل والنهار تحت ضوء الشمس نتيجة دوران الأرض حول نفسها .. بينما في ذلك الوقت الذي خُلِقَتْ فيه السماوات والأرض ، لم تكن هناك شمس ، وبالتالي لم يكن هناك ليل ولا نهار .. يجب علينا أن نخلع تصوراتنا المادية المكانية الزمانية أثناء الحديث عن الذات الإلهية ، ويجب علينا أن نسحب - في تصوراتنا - كلمة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ التي ترتبط بخلق السماوات والأرض على دوران المادة الأولى [التي أوجدها الله تعالى سابقاً] في هيئتها المكانية ، دورات كاملة أدت إلى تشكّل الكون الحالي ..

وما يحدّده علماء الفلك من زمنٍ مرَّ على وجود مكونات هذا الكون ، هو مسألة أخرى ، تتعلق بتغيّر صفات المادة مع الزمن ، وفق معايير مادية بحتة ، ووفق نواميس ندرکها كجزئيات من الناموس الكلّي الذي يحكم حركة هذا الكون .. وهذا التغيّر لصفات المادة مع الزمن ، إنّما بدأ بعد انتهاء خلق الكون (في الأيام الستة التي بيّنها

القرآن الكريم) ، أي بعد دوران المادة الأولى حول نفسها وتمايزها حتى أخذ الكون شكله الحالي ..

فهذا الدوران للمادة الأولى حول نفسها ، والذي تمّ خلال ستة أيام (ست دورات كاملة متمايزة) ، لا يمكن إخضاعه لمقاييسنا الزمنية ، كإخضاع المادة الموجودة تحت حواسنا ومشاهدتنا لهذه المقاييس .. فنحن لم نشهد حقيقة خلق السماوات والأرض عبر الأيام الستة التي يُخبرنا الله تعالى عنها في القرآن الكريم ، ولا تُوجد بين أيدينا مقدّمات عن هذه المسألة يمكننا دراستها وبالتالي ستبقى هذه المسألة خارج مقاييسنا الزمنية ، وخارج المعايير الجزئية لتغيّر صفات المادة التي بين أيدينا ..

وما يجب أن نُدرّكه - أيضاً - هو أن توضع الأرض الحالي ومكانها في جسم الكون ، مسألة لا يمكن سحبها على توضعها ومكانها في بداية الخلق ، فنحن نعلم أن مكونات هذا الكون (بما فيها الأرض) تتحرّك ، وأنّ كلاً منها يسبح في فلكه ..

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي هَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبُحُونَ ﴾ [يس : ٤٠]

وبالتالي لا يمكن الانطلاق من توضع الأرض الحالي ومن مكانها في جسم الكون ، كمقدّمة يقينية لرسم صور مراحل خلق السماوات والأرض ، كما هو حال بعض الفرضيات الغربية التي تتغيّر من وقتٍ لآخر .. فهذه المسألة ستبقى خارج مقاييسنا المكانية ، وخارج كلّ المعايير الجزئية التي نشاهدها ونخضعها لحواسنا ..

.. إذاً .. لا يمكننا الانطلاق من المادة الحالية الموجودة بين أيدينا (زماناً ومكاناً) كمقدّمات نعتبرها يقينية لرسم صور مراحل تكوّن السماوات والأرض .. وهذا هو عين ما ينطق به قول الله تعالى ..

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذًا

الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١]

.. وهكذا نرى أن الانطلاق في معرفة عمر مواد الأرض من معايرة موادها وفق معايير وأدوات مادية هي ذاتها خاضعة لقوانين مادية متغيرة ، ليس يقيناً مطلقاً أليست هذه الأدوات (التي نستخدمها في هذه المعايير) مادية وخاضعة لقوانين وهيآت متغيرة ؟ ، فكيف إذاً تكون يقيناً نستعمله لمعايرة مواد أخرى بهدف الوصول إلى يقين في عمرها !!!؟ ..

.. ونرى أيضاً أن موقع الأرض الآن في جسم الكون ليس دليلاً مطلقاً على أنها لم تكن في بداية الخلق في مركز الكون وما نستخدمه من أدوات بحثية لتحديد أعمار المحرّات والكواكب والنجوم ومواد هذا الكون ، ليس يقيناً غير قابل للنقض ، لأننا نعتبر المادة المتغيرة التي نبحت عن عمرها معياراً في ذلك ، وبالتالي لا ننطلق من مقدمات يقينية توصلنا لنتائج سليمة ..

.. كما نقول للمتاجرين باسم الدين ، الذين يقدمون أنفسهم علماء يجمعون بين العلم (الفرضيات الغريبة) والقرآن الكريم ، نقول لهم : عليكم ألا تقفزوا فوق صياغة النصوص القرآنية الواضحة والجلية في ذلك ، من أجل موافقة تخیلات وأهواء ينقضها كتاب الله تعالى جملة وتفصيلاً ... فالقرآن الكريم - في هذه المسألة وغيرها - واضح جلي ، ونصوصه لا تقبل - أبداً - كل محاولات لي الأعناق التي تقومون بها ، من أجل موافقة فرضيات وتخیلات متعدّدة ومتناقضة ، سيثبت بطلانها لاحقاً ..

.. إنكم بذلك تسيئون للنصّ القرآني ، سواء علمتم بذلك أم لم تعلموا .. فالمؤمن بكتاب الله تعالى ينطلق - في تفسير آياته - من الالتزام بالصياغة اللغوية لنصوصه ، وفق منهجية ثابتة لا تخرج عما يحمله كتاب الله تعالى من دلالات وأحكام .. وما

تقومون به هو مخالفة واضحة لصريح صياغة كتاب الله تعالى من أجل موافقة فرضيات متناقضة سيثبت بطلانها في يوم من الأيام ..

ولنبداً برسم مراحل مسألة خلق السماوات والأرض ، كما تصوّرنا لنا الصور القرآنية التي تصوّر جوانب هذه المسألة ومراحلها ، فنأخذ كلّ صورة قرآنية لوحدها ضمن سياقها القرآني وضمن المرحلة التي تصوّرنا ، ومن ثمّ نقوم بدمج مراحل جميع الصور القرآنية المصوّرة لجوانب هذه المسألة ومراحلها ، لنحصل - إن شاء الله تعالى - على حقيقة المسألة كما ترسمها كلمات الله تعالى (حسب إدراكنا لمدلول الآيات الكريمة) ، بعيداً عن تناقضات التفاسير الموروثة ، وبعيداً عن الفرضيات الغريبة التي تتغير من حينٍ لآخر .. وبذلك نعمل وفق مبدأ الكلية في البحث القرآني ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾

﴿كُلُّ﴾ ..

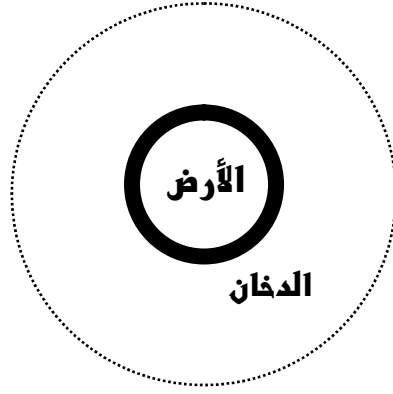
.. لننظر إلى الصورة القرآنية التالية ..

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُدً أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَدْرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

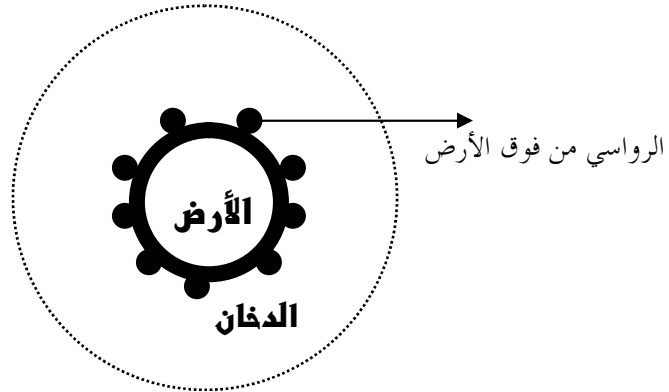
[فصّلت : ٩ - ١٢]

هذه الصورة القرآنية ترسم لنا المراحل المتتابعة التالية ..

١- تمّ خلق الأرض في يومين : ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ..



٢- تمّ جعل الرواسي من فوق الأرض ، أي إيجاد الرواسي دون إرسائها في جسم الأرض ، ودليل ذلك الكلمتان ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ في العبارة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ .. وسنرى إن شاء الله تعالى كيف أنّ إرساء هذه الرواسي التي وُجِدَتْ في هذه المرحلة من خلق الأرض ، سيكون في المراحل المتأخّرة من خلق السماوات والأرض ، وبعد خلق السماوات السبع ..



٣- بارك الله تعالى فيها .. ﴿ وَنَزَّلْنَا فِيهَا ﴾ ..
٤- قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ ..

وقد تَمَّتْ نهاية هذه المرحلة في أربعة أيام ، يدخل ضمنها اليومان اللذان خُلِقَتْ فيهما الأرض ، فالصورة القرآنية ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ تُبَيِّنُ لنا أنَّ كلَّ ما حصل حتى نهاية تلك المرحلة [خلق الأرض من المرحلة الأولى ، وجعل الرواسي في الأرض من فوقها ومباركتها وتقدير أوقاتها] هو في أربعة أيام ..

.. العبارة القرآنية ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ ليست عبثاً ، فالأيام الأربعة ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ هي سواء لكل هذه المراحل وذلك لكل من يسأل عن ذلك ، وهي إجابة مسبقة للذين سيشككون في هذه المسألة ، متوهمين أنَّ الأيام الأربعة المذكورة هنا غير اليومين السابقين اللذين خُلِقَتْ فيهما الأرض ..

.. لقد جاءت هذه العبارة ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ لتبيِّن لنا أنَّ كلَّ هذه المراحل ابتداء من خلق الأرض وانتهاء في تقدير أوقاتها فيها ، إنَّما تَمَّتْ في أربعة أيام فقط فعندما يقول أحدنا إنَّه قطع زمناً من المحطة الأولى إلى الثانية في يومين ، وإلى الثالثة في أربعة أيام ، إنَّما يعني أنَّ الأيام الأربعة هي من بداية المحطة الأولى حتى الثالثة ..

.. ولربَّ قائل يقول لماذا لم يُخصَّص اللهُ تعالى - في قوله - يومين للمرحلة الثانية كما خصَّص للمرحلة الأولى؟!!!! .. نقول : عندما قال اللهُ تعالى إنَّه خلق الأرض في يومين ، فإنَّ ذلك يعني أنَّ هذه المرحلة (خلق الأرض) تَمَّتْ في يومين ، ولا يعني أنَّ

هذين اليومين لم يُخلَقْ بهما إلاَّ الأرض .. أمَّا الصورة القرآنية ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ فتعني أنَّ الأيام الأربعة دون زيادة أو نقصان صارت مستغرقة في تلك الأعمال حتى نهاية المرحلة الثانية ، فهذه العبارات القرآنية تبيِّنُ تداخل المرحلة الثانية مع المرحلة الأولى في الأيام الأربعة ، في حين أنَّ خلق الأرض تمَّ خلال اليومين الأولين .. هذا ما نقرؤه من صياغة هذه العبارات القرآنية ..

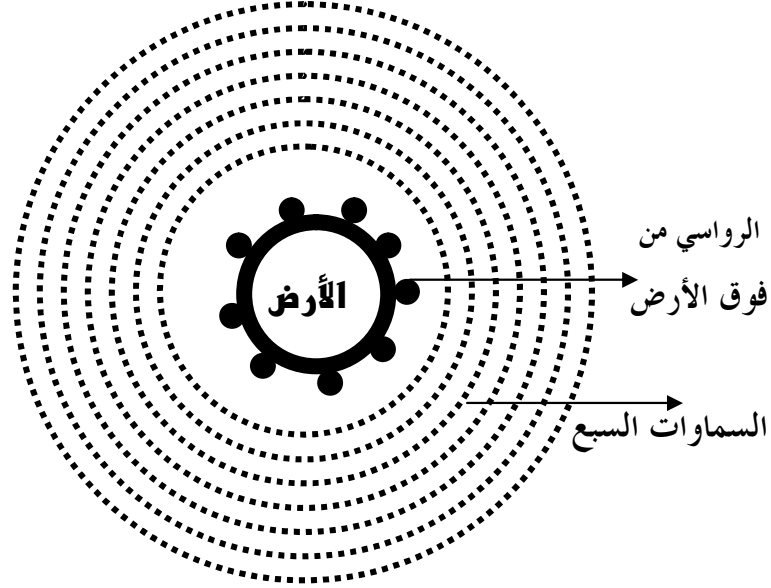
٥ - الاستواء إلى السماء وهي دخان ، وتخييرها والأرض الإتيان طوعاً أو كرهاً ،

واختيارهما الإتيان طوعاً .. ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ

أَتَبِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ..

٦ - قضاء الله تعالى السماوات السبع في يومين ، وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها ..

﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ ..



٧ - تزيين السماء الدنيا بمصابيح ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ..

.. ولننظر إلى الصورة القرآنية التالية ..

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَّ السَّمَاوَاتِ بِنَلَّهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
 وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾
 وَأَلْبَالَ أَرْسَلَهَا ﴿٣٢﴾ ﴿النازعات : ٢٧ - ٣٣﴾

.. إننا نرى أن هذه الصورة القرآنية تبدأ من مرحلة بناء السماء ، حسب المراحل

التالية :

- ١ - بناء السماء : ﴿السَّمَاوَاتِ بِنَلَّهَا﴾ ..
- ٢ - رفع سمكها وتسويتها : ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾ ..
- ٣ - غطش ليلها وإخراج ضحاها : ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ..
- ٤ - دحي الأرض : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ..
- ٥ - إخراج ماء الأرض منها وكذلك المرعى : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ ..
- ٦ - إرساء الجبال ﴿وَأَلْبَالَ أَرْسَلَهَا﴾ ، تلك الجبال المخلوقة في مرحلة سابقة ..

فكما رأينا في الصورة القرآنية الأولى أن الله تعالى جعل في الأرض رواسي من فوقها دون إرسائها في جسم الأرض ، وذلك قبل الاستواء إلى السماء وتسويتها .. هذه الجبال التي جعلت من فوق الأرض تم إرساؤها في هذه المرحلة ، فالعبارة القرآنية ﴿وَأَلْبَالَ أَرْسَلَهَا﴾ في هذه الصورة القرآنية تُبين مرحلة متأخرة عن المرحلة التي تبيّن

العبارة القرآنية في الصورة السابقة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ ..

.. والصورة القرآنية التالية تؤكد أن خَلَقَ السماوات مرحلة تسبق إرساء رواسي في

الأرض .. تلك الرواسي التي جعلت من فوق الأرض [دون إرساء في جسم الأرض]

قبل تسوية السماء كما رأينا ..

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠]

وما نراه في هذه الصورة القرآنية أن إنزال الماء من السماء على الأرض لِيُنْبِتَ اللهُ تعالى فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ ، كان بعد إلقاء الرواسي في الأرض ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ .. بينما في الصورة القرآنية السابقة رأينا أن إخراج ماء الأرض منها ومرعاها منها ، كان قبل إرساء الجبال فيها ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۗ وَالْجِبَالَ أَرْسَدَهَا ﴾ ..

.. وهنا علينا أن نُميِّز بين ماء الأرض ﴿ مَاءَهَا ﴾ الذي أخرجهُ اللهُ تعالى منها ومرعى الأرض ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ الذي أخرجهُ اللهُ تعالى منها ، والذي كان قبل إرساء الجبال فيها من جهة ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۗ وَالْجِبَالَ أَرْسَدَهَا ﴾ ... وبين الماء الذي أنزله اللهُ تعالى من السماء ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ لِيُنْبِتَ في الأرض من كلِّ زوجٍ كريمٍ ، والذي كان بعد إلقاء الرواسي في الأرض ، من جهةٍ أُخرى ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ .. والصورة القرآنية التالية تؤكد لنا أن خَلَقَ جميع موادَّ الأرض ومكوناتها إنما كان قبل تسوية السماء إلى سبع سماوات ، وبالتالي فالجبال كرواسي للأرض خُلِقَتْ قبل تسوية السماء سبع سماوات ، فما تأخَّر [كما رأينا] هو إرساؤها في جسم الأرض ..

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩]

ولننظر إلى الصورة القرآنية التالية ..

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۗ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۗ وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠ - ٣٢]

هذه الصورة القرآنية ترسم لنا مراحل الخلق بعد فتح السموات والأرض ، وذلك

حسب الترتيب التالي ..

١ - كانت السموات والأرض رتقاً : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ ..

٢ - فتقهما الله تعالى : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ..

٣ - جعل الله تعالى كل شيء حي من الماء : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ..

٤ - جعل الله تعالى رواسي في الأرض : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ

بِهِمْ ﴾ ..

٥ - جعل فيها فجاجاً سبلاً : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ..

٦ - جعل الله تعالى السماء سقفاً محفوظاً : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ ..

وهكذا نرى أن السموات السبع كانت رتقاً مع الأرض قبل فتقهما .. فتسوية

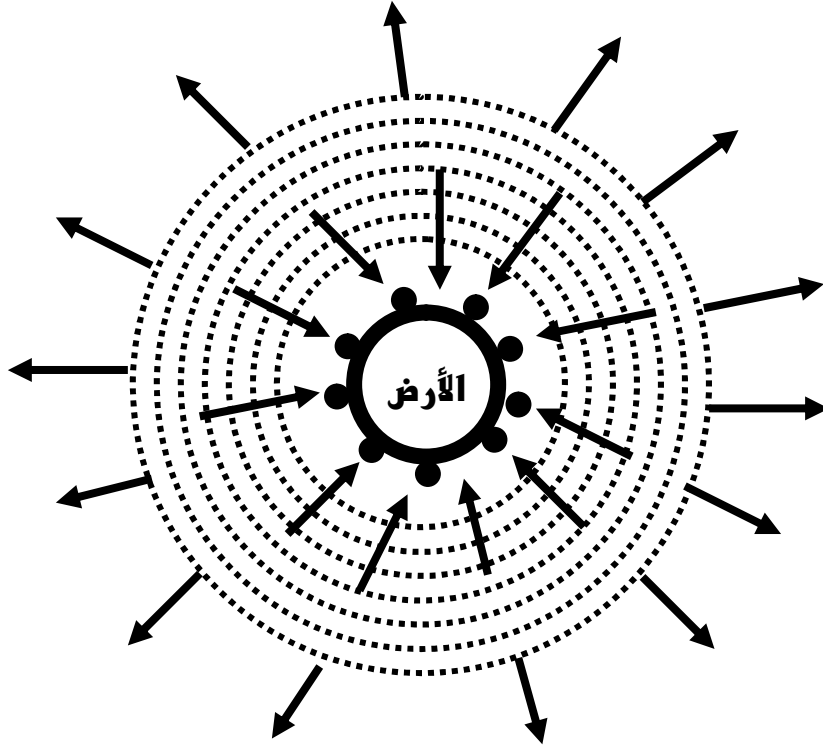
السماء إلى سبع سماوات هي مرحلة سابقة لمرحلة فتح السموات عن الأرض .. ونرى

أيضاً أن جعل الرواسي في الأرض هي مرحلة لاحقة لفتح السموات عن الأرض ..

ومسألة اتساع السماء التي بدأت بفتقها عن الأرض ، ما زالت مستمرة ..

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧]

.. إذا بفتق السماوات عن الأرض تشكلت قوتان متعاكستان تماماً ، القوّة الأولى هي القوّة الجاذبة والتي أدّت (وما زالت تؤدّي) إلى إرساء الجبال [التي جعلها الله تعالى في مرحلة سابقة] في جسم الأرض ، والقوّة الثانية المعاكسة والموازنة لها هي القوّة النابذة والتي أدّت (وما زالت تؤدّي) إلى اتساع السماء ..



.. هذا الناموس الذي يحكم حركة الكون الآن ، والذي سّماه الله تعالى في القرآن

الكريم بـ : ﴿ الصُّور ﴾ كما بيّنا ، سيُنْفَخُ فيه لتنعكس قوانينه رأساً على عقب ..

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ

نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

فالسماوات التي تتسع الآن ، ستطوى ليعود الخلق إلى النقطة التي بدأ منها .. بمعنى أن القوة النابذة التي تؤدي - الآن - إلى اتساع السماء ، ستعكس إلى قوة جاذبة تطوى فيها السماء كطي السجل للكتب ، لتعود إلى أول الخلق ..

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۗ

وَعَدًّا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]

والقوة الجاذبة التي أرست (وما زالت ترسي) الجبال في جسم الأرض ، ستعكس إلى قوة نابذة ، تُخرج الجبال من جسم الأرض ، لتعود كثيباً مهيباً من فوق الأرض كالعهن المنفوش ، والإنسان الذي يسير فوق الأرض محكوماً بقانون الجاذبية سيكون عند بداية الساعة كالفراش المبتوث ، حيث قوة الجاذبية ستحوّل إلى قوة نابذة ..

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۗ وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴾ [الطور : ٩ - ١٠]

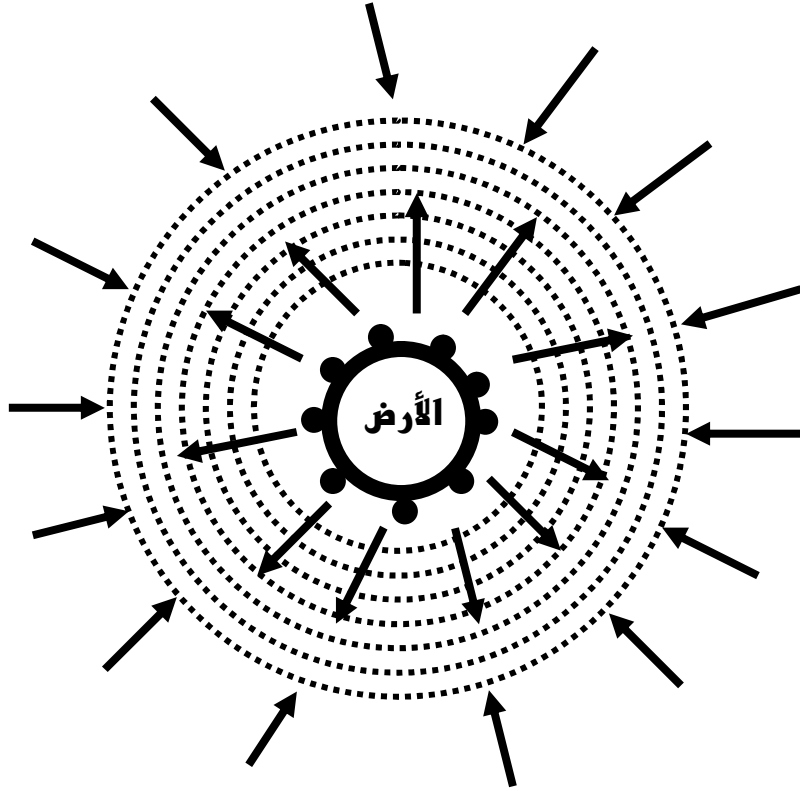
﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل : ١٤]

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۗ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبا : ١٩]

[٢٠ -]

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۗ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ

الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة : ٤ - ٥]



ومسألة استقلالية خلق الجبال عن خلق الأرض مسألة تتأكد لنا من خلال عطف القرآن الكريم لها على الأرض .. صحيح أن الجبال جزء من الأرض ، ومادتها من مواد الأرض ، ولكن الله تعالى يصفها بخصوصية مستقلة عن الأرض ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكِّرْنَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤]

﴿ يَوْمَ تَرُجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ [المزمل : ٧٣]

.. ودمج جميع الصور القرآنية المصوّرة لجوانب هذه المسألة ، أي بالنظر إليها من منظار منهج البحث القرآني ﴿ءَامِنًا بِهِ كُلُّ﴾ ، نرى مراحل هذه المسألة - حسب إدراكنا لدلالات الآيات الكريمة - على الشكل التالي ..

١ - المادّة الأولى أُوجِدَت بكلمة ﴿كُنْ﴾ من الله تعالى ، وهي موجودة قبل المراحل التي نحن بصدد دراستها .. ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة : ١١٧]

٢ - خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ..

٣ - جَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا ، دُونَ إِرْسَائِهَا فِي جِسْمِ الْأَرْضِ .. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا﴾ ..

٤ - بَارَكَ فِيهَا .. ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾ ..

٥ - قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا .. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا﴾ ..

٦ - الاسْتِوَاءَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ وَتَخْيِيرَهَا هِيَ وَالْأَرْضُ بِالْإِيتْيَانِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، وَاسْتِوَاءَهُمَا بِالْإِيتْيَانِ طَوْعًا .. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ..

٧ - بِنَاءَ السَّمَاءِ وَرَفْعُ سَمَكِهَا وَتَسْوِيطُهَا ، وَإِعْطَاشُ لَيْلِهَا وَإِخْرَاجُ ضُحَاهَا ..

﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْتُهَا ﴿١٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾

٨ - تسويتها سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها .. ﴿ فَقَضَّصْنَهُنَّ

سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ .. وفي هذه المرحلة تمَّ خَلْقُ

السماوات بغير عمدٍ نراها .. ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ..

٩ - تزيين السماء الدنيا بمصاييح .. ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ..

وبالتأكيد فإنَّ هذه المصاييح في تلك المرحلة لم تكن بالهيئة التي هي عليها الآن ، فنحن نتحدَّث عن مرحلة بداية الخلق ، وليس عن الشكل الحالي للكون ، أي نتحدَّث عن الماهية الأولى للخلق وليس عن الماهية الحالية التي بالتأكيد تختلف عنها في بداية الخلق .. فالمصاييح بماهييتها الآن نتجت عن عوامل طرأت على المصاييح الأولى في تلك المرحلة ، ومن أهم هذه العوامل الفتق وما نتج عنه من قوَّة نابذة ، أدَّت - وما زالت تؤدِّي - إلى توسُّع السماء ، كما سنرى في المراحل التالية ..

.. وحتى هذه المرحلة فإنَّ السماوات والأرض كانتا رتقاً لم تُفتقا بعد .. بمعنى لم يحدث الانفجار الذي كوَّن قوتين متعاكستين (جاذبة ونابذة) ..

١٠ - فتق السماوات عن الأرض ، وتكوُّن القوتين المتعاكستين (الجاذبة والنابذة)

.. ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ..

ونتيجة لذلك بدأت المرحلة التالية ..

١١ - اتساع السماء ، والذي ما زال حتى الآن .. ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا

لَمُوسِعُونَ ﴾ ..

١٢ - ونتيجة للفتق تمَّ دحي الأرض .. ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ..

١٣ - ونتيجة للفتق تمَّ إخراج ماء الأرض ومرعاها منها .. ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

وَمَرَعَهَا ﴾ ..

١٤ - ومع هذا تم جعل كل شيء حي من الماء .. ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

١٥ - ونتيجة للفتق تم إرساء الجبال (التي كانت من فوق الأرض) في الأرض ،

حتى لا تميد بالمخلوقات .. ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ .. ﴿ وَالْقِيَامُ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ .. ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ ..

١٦ - جعل فيها فجاجاً سُبُلًا .. ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ..

١٧ - جعل السماء سقفاً محفوظاً .. ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ ..

١٨ - بث في الأرض من كل دابة .. ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ ..

١٩ - أنزل من السماء ماءً لِيُنْبِتَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .. ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ..

وجميع المراحل ابتداءً من تسوية السماء سبع سماوات ، حتى إرساء الجبال في الأرض ، تمت في اليومين الأخيرين من أيام خلق السماوات والأرض التي استغرقت ستة أيام ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾

﴿ [ق : ٣٨] ﴾

وكما قلنا فإن هذه المراحل لا يمكن إخضاعها لمقاييسنا الزمانية والمكانية التي نقيس بها تغير صفات المادة الواقعة تحت حواسنا ، وذلك وفق معايير جزئية لا تخرج - في النهاية - عن تصوراتنا الحسية المحكومة بقوانين الزمان والمكان ... وصفات المادة الموجودة بين أيدينا هي نتائج لتلك المراحل من الخلق ، وبالتالي فإن الانطلاق من هذه النتائج باتجاه المقدمات التي أدت إلى هذه الصفات لا يخلو من تأثير تصوراتنا المسبقة

الصنع التي نفرضها في محاولتنا للوصول إلى تلك المقدمات .. فنحن لم نشهد هذه المراحل ، ولا نُوجد بين أيدينا مقدمات لها يمكننا دراستها وإحضاعها للتجارب ، ولا نعلم عن هذه المسألة سوى ما يخبرنا الله تعالى عنها ..

.. ولذلك يجب عدم الخلط بين ما بيّنه لنا كتاب الله تعالى من مراحل خلق السماوات والأرض من منظار علم الله تعالى الذي هو فوق مقاييسنا المجتزأة ، وبين ما يقوله علماء الفلك من زمنٍ مرّ على مكوّنات هذا الكون ، انطلاقاً من النظر إلى صفات المادة التي بين أيدينا من مناظير لا يمكن اعتبارها ناموساً كاملاً يشمل حركة الكون (كل الكون) حتى وقتنا الحاضر ..

.. وكما قلنا .. مكان الأرض الآن في جسم الكون لا يمكن الانطلاق منه كمقدمة يقينية للجزم بأن الأرض لم تكن في مركز الكون في بداية الخلق كما بيّنا .. فهذه الدراسة تفصّل بداية الخلق ، ولا تتعلّق بمكان الأرض الآن في جسم الكون ، هذا إضافة إلى أن الفرضيات الفلكية في هذا المجال (وغيره الكثير من المجالات) تتطوّر مع الزمن ، وبالتالي فإنّ الفرضيات الفلكية في هذه المسألة ليست حجة على دلالات كتاب الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) ، ولا يجوز لي دلالات كتاب الله تعالى لتوافق فرضيات قابلة للنقض في أيّ لحظة ..

من هنا نقول للذين يركبون - زوراً وبهتاناً - موجة العلم وموجة البحث في كتاب الله تعالى ، وينشرون تحريفاتهم على الفضائيات مقدّمين أنفسهم علماء في الفلك والدين ، والذين يأخذون الفرضيات الغربية دون أن يعوا حقيقتها ، ويحاولون تحريف دلالات كتاب الله تعالى الواضحة وضوح الشمس وسط النهار لتوافق فهمهم القاصر لهذه الفرضيات ، متاجرّين بكتاب الله تعالى ، نقول لهم : كفاكم متاجرة بكتاب الله تعالى ، وسوقُ الكثيرين من القطيع خلف أوهامكم لا يعني إلاّ أنّهم ضحايا لأوهامكم التي ينقضها كتاب الله تعالى جملةً وتفصيلاً ..

من خلال بحثنا لهذه المسألة نرى أن القرآن الكريم تُفهم دلالاته وأحكامه ومعانيه بكليته ، ولا يمكن تجزئة آياته بشكلٍ مستقلٍ عن بعضها بعضاً .. فلو اتبعنا منهج البعضية في هذه المسألة ، وفهم الآيات القرآنية بشكلٍ مستقلٍ عن بعضها بعضاً ، لأوهم ذلك بوجود تناقض بين الآيات الكريمة .. ففي مسألة الجبال رأينا أن الصورة القرآنية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ تسبق مرحلة تسوية السماوات .. وفي الصور

الأخرى رأينا وصفاً للجبال بعد مرحلة تسوية السماوات .. ﴿ السَّمَاءُ بِنُحُلٍ رَفَعَ

سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ۗ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۗ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۗ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۗ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِأَنْتَعِمُوا ۗ ..

.. وفي مسألة الماء رأينا كيف أنه علينا أن نُميز بين ماء الأرض الذي أُخرج منها

نتيجة دحيها بعد الفتق .. ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۗ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

وَمَرْعَاهَا ۗ .. حيث يُضاف هذا الماء للأرض ويأتي بصيغة الإخراج منها ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا

مَاءَهَا ۗ .. علينا أن نُميز بين هذا الماء وبين الماء الذي أنزل من السماء بعد هذه المرحلة

بمراحل كما رأينا ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَبْثْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ..

وقد رأينا كيف أن منهج الكليّة في البحث القرآني قادنا إلى إدراك حقيقة مهمّة جداً

، هي أن الجبال مرّت بمرحلتين ، المرحلة الأولى خَلَقُهَا وقد تمّت قبل تسوية السماء إلى

سبع سماوات ، وكانت هذه الجبال من فوق الأرض ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾

فورود الكلمتين ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ ليس عبثاً .. والمرحلة الثانية إرساؤها في جسم الأرض ،

وقد تمّت بعد تسوية السماوات السبع كما رأينا ..

ورأينا أيضاً أنّ منهج الكلية في البحث القرآني قادنا إلى إدراك حقيقة أخرى هي أنّ خلق الأرض سبق تسوية السماوات السبع ، بينما دحي الأرض وإخراج مائها ومرعاها منها تأخر عن تسوية هذه السماوات ..

المهندس عدنان الرفاعي